



يسكن الصمت بنا ونحن نسكن به منذ عقود تحت وطء الرعب، نمارس حياة أي حياة بل ربما أسفنا وأحط من أي حياة. نحتسي قهوةً في كل الأوقات، وندمن مراتها بل نستعذبه وتلوك حديث السياسة وكأنّا حكماء كل الأزمنة، وحصراً في دوائرنا الضيقة ربّاً من المخبرين، وإن حدث ولمح أحدنا مخبراً مُتطفلًا يعبر شارعنا وأخبرنا بقدومه سقطنا جميعاً أرضاً وكأننا نتعرض لغارة جوية كنا قد تدربنا عليها في زمن حروبنا تلك التي هُزمنا بها جميعاً.

الصمت في مملكة الصمت له **ألف لسان ولسان**، ففي عيون المارة المتعبيين وعلى قسمات وجوه من يعبرون الأسواق وليس في جيوبهم ما يكفي لشراء أقل ما يمكن شراؤه؛ يُقرأ بها حكاية الإفقار العمد مع سبق الإصرار والترصد. ويصبح الصمت صخباً عند استلام الراتب ودون تحريك الشفاه، وهناك يُنال مرتبة شحات بصورة رسمية، وأما من يدفع الرشوة أو الإتاوة فصمته يصبح غيظاً يُكتظ خوفاً، وهذا الذي يسمى بالاستنزاف الوبائي في **مُستنقع الفساد المدروس رئاسياً**.

والمتجلولن الشباب بحثاً عن عمل تنطق ملفات أوراقهم عبئية اللاتكافؤ في الفرص لتحليلها كأكواخ قمامنة في شارع متسع ضيق لعشوشيات انتشرت على أطراف المدن العتيقة تشبه الجيوش التي تحاصر المدن اليوم، فليس صحيحاً أنها ظلت طريقها أو حتى أهدافها المعلنة. يفتاك الصمت بنا واحداً تلو الآخر يعرينا من ملابسنا بل حتى يفقدنا الرجولة وقد يجعلنا لا نتذكرها إلا في الفراش خجلاً، وهذه الأخيرة في مثل حالتنا تستفزنا للبكاء على المعنى الحقيقي للرجولة ولو بكسر الصمت وتصبح زفات الشعور بالإثم كنهاية مسرحية صموئيل بيكت في انتظار العبث.

تُرعد السماء سنُسمع الأصوات مدويةً، ويشق قلب الظلام والبرق يضيء الليل، تهبط قلوبنا نتلمس أطرافنا، وينهر المطر فثمة الطوفان قادم لا محالة، وندرك باليقين القاطع أن الطوفان ما هو ماء من السماء، بل شعب يثور يجوب الشوارع وأصوات الرعد ما هي إلا حناجر الشباب والشيب والأطفال... حقاً فقد رأينا القشة تقصم ظهر البعير، وبنصر في عيونهم وقبضات سواعدهم إصراراً فوق أي تحدي وإن كان للموت نفسه الذي لا يُشك بقدومه وكل شيء في أجسادهم يؤكّد أنهم ما خرجوا إلا تحدياً ومواجهةً للموت نفسه. هنالاً تصدق حناجرم للحرية، وتحدياً لسيوف النظام فما ارتجفت أصوات هفت للحرية وإن نُحررت حناجر أصحابها من الوريد إلى الوريد لتغيّب أجساد الشهداء في الثرى، وتبقى أصواتهم تتردد على شفاه كل من بفمه لسان أغانيات، ونهر عذب من الألحان، أصوات ستسكن أعماق أعمقنا لا أجيال وأجيال، سلاحنا الأبدي في وجه الصمت ومملكة الصمت، في وجه القاتل والسيف والسجان.

فلم يعد مرور المخبرين في الشارع أمراً يستدعي الانبطاح في جماعات على الأرض تقليداً لما كان قد اصطلحنا على تسميته بالغارة الجوية، نعم كسر وهم الخوف وتصدعت مملكة الصمت وإن بلغ بها حد المواجهة الدموية المرعبة تلك التي

تجاوزت المذابح إلى الإبادة للمواطنين العزل ليصبح التراجع عن الثورة أمراً محال بينما بقاء الظلمة في السلطة يؤكّد غباء ظالم ما كان ليتعلّم من عناد وغباء ظالم آخر آلَ به عناده إلى حبل واحد خصص له دون سواه، يتنافس الملايين لتقديمه مجاناً بل منهم من لديه الاستعداد لدفع المال ليُقبل منه علَ ذلكْ يشُفِي غليلَ قومٍ يوقنونْ.

المصدر: موقع أرفلون نت

المصادر: